

دلائل الإعجاز

أنه أوتيها وأنه ممَّنْ يَكملُ للحكم ويصحُّ منه القضاءُ فجعل يقولُ القولَ لو علم غِيْبَهُ لاسْتَحْيَا منه . فأما الذين يحسُّ بالنقص من نفسه ويعلم أنه قد علمَ علماً قد أوتيهِ من سواه فأنتَ منه في راحة وهو رجلٌ عاقلٌ قد حماه عقلُهُ أن يعدوَ طَوْرَهُ وأن يتكلَّفَ ما ليس بأهلَ به .

وإذا كانتِ العلومُ التي لها أصولٌ معروفة وقوانينٌ مضبوطة قد اشترك الناسُ في العلمِ بها واتفقوا على أن البناءَ عليها إذا أخطأ فيه المخطئ ثم أُعْجِبَ برأيه لم يُستَطعْ ردُّه عن هواه وصرفُهُ عن الرأي الذي رآه إلاَّ بَعْدَ الجهد وإلاَّ بعد أن يكونَ حَصِيفاً عاقلاً ثباتاً إذا نُذِبَ انتبه وإذا قيلَ : إنَّ عليك بقيةً مِنَ الذَّنْطِ وقِفْ وأصغى وخشيَ أن يكونَ قد غُرِّ فاحتاطَ باستماعِ ما يقالُ له وأنفَ من أن يَلْجَ من غيرِ بيِّنَةٍ ويتطيلَ لغيرِ حجة . وكان مَن هذا وصفه يعزُّ ويقلُّ فكيف بأن تردَّ الناسَ عن رأيهم في هذا الشأن وأصلُّك الذي تردُّهم إليه وتعوِّلُ في مَحَاجَّتِهِم عليه استشهادُ القرائح وسبرُ النفوس وفلايُها وما يعرضُ فيها من الأريحية عندما تسمع . وكان ذلك الذي يفتَحُ لك سَمْعَهُم ويكشفُ الغطاءَ عن أعينهم ويَصْرِفُ إليك أوجُهُهُم . وهم لا يضعون أنفسهم موضعَ مَن يرى الرأيَ ويفتي ويَقْضِي إلاَّ وعندهم أنهم ممن مَصَفَاتُ قريحته وصحَّ ذوقُهُ وتمَّتْ أدواته .

فإذا قلتَ لهم : " إنكم قد أُتِيتُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ " ردُّوا عليك مثلاً وقالوا : " لا بل قرائحُنا اصحُّ ونظرُنا أصدق وحسُّنا أذكى . وإنما الآفةُ فيكم لأنكم خَيَّلتُم إلى نفسِكُم أموراً لا حاصلَ لها وأَهمَّكم الهوى والميلُ أن تُوجِبُوا لأحدِ الذَّنْطِ المِئين المتساويين فضلاً على الآخر من غيرِ أن يكون ذلك الفضلُ معقولاً " . فتبقى في أيديهم حَسِيراً لا تملكُ غيرَ التعجُّبِ . فليس الكلامُ إذاً بمُغْنٍ عنك ولا القولُ بنافعٍ ولا الحِجَّةُ مسموعة حتى تجد مَن فيه عونٌ لك على نفسه . ومن أتيَ عليك أبى ذاك طَبْعُهُ فردَّه إليك وفتَحَ سَمْعَهُ لك ورفَعَ الحجابَ بينك وبينه وأخذَ به إلى حيثُ أنتَ وصرفَ ناظرَهُ إلى الجهة التي إليها أومأت . فاستبدلَ بالذَّنْطِ أنساً واراكَ مَن بعد الإِباء قَبُولاً . ولم يكن الأمرُ على هذه الجملة إلاَّ لأنه